

سابقة الفيلسوف لأطرب السنة الثمونية: (٤)

## (١) النفس عند ابن سينا (٤)

للأستاذ كمال دسوقي

لا يفوتني قبل أن أتقدم بكم إلى موضوعنا اليوم أن أهبكم إلى هذه العدة الوثيقة بين النقل بتسميه النظرى والعملى عند ابن سينا وبين تصنيفه له علوم العقلية . ولما كنت أختشى ألا يتيسر لكم الوقوف على هذا التصنيف في كتابه الشفاء ، أو في مقدمة منطق الشرفيين أو في رسالته في أقسام العلوم العقلية ، فاني أرجو لكم الحديث عن لوحة تقسيمه للعلوم هذه التي ينبغي أن تتفروا عليها وأن تربطوها بأقسام النقل النظرى والعمل الذى حدثكم عنها في المقال السابق .

ذلك أن العلوم تنقسم عند ابن سينا كذلك إلى نظرية وعملية . فالنظرى منها ما كانت غايته حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان ، كالثق والكواكب ، والأرض ، والأعداد ... الخ اعتقادا غايته الوصول إلى الحق Truth والبحث عن الحقيقة Yérité . أما العملى فيتجاوز حصول الاعتقاد إلى حصول رأى عملي فيها هو من تدير الإنسان وكسبه ؛ حصولا من شأنه أن يؤدي بنا إلى الخير Goodness أو Bien ، فهنا تفرقة للأشياء من حيث وجودها بإرادتنا أو بتير إرادتنا وكيفية علمنا بها على هذا الأساس .

والعلوم النظرية عنده ثلاثة : العلم الأدنى ( الطبيعيات ) ؛ وموضوعه هذه الأمور التي حدودها وجودها يتصلقان بالمادة والحركة ، كأجسام الأفلاك التي تمددنا منها ، وللناسم الأربعة وكل ما هو جسمى على الإطلاق . مما يتير عليه الحركة والسكون والسكون والفساد والتير والاستحالة . ولهذا العلم مبادئ أصلية نظرية هي التي ذكرناها حين كنا نتحدث عن موضع النفس من مذهب ابن سينا ، وتطبيقات فرعية كالتب والتجيم والفراسة والكيمياء مما يقوم على المبادئ الأصلية السابقة . ثم العلم الأوسط ( الرياضيات ) وموضوعه أمور يتعلق وجودها بالمادة وإن تجردت حدودها عنها ، كعلم المدد ( الحساب ) والهندسة ( علم الطوايح

والأشكال والمقادير ) وعلم الهيئة ( الأملاك وأوضاعها وحركاتها ) والموسيق ( علم النغم والإيقاع واللحن والاتفاق - ) هذه مبادئه الأصلية ، وله كذلك فروع تطابقية كالساحة والحيل ( الميكانيكا ) وعلم المناظر والمرايا وجر الأنفال ونقل المياه ... الخ . وأخيراً العلم الأعلى ( الإلهيات ) التي ليست أمورها ذات تعلق بمادة أو حركة والتي تبحث في ذات الواحد الحق وصفاته من هووية identité ووحدة وعلمية Causolité ... الخ . وله هو الآخر أسول وفروع لا داعى للإحاطة بها .

أما العلوم العملية فهي التي موضوعها الأفعال التي تشترك مع غيرنا أفراداً وجماعات - وهذه بطبيعة الحال أمور من محض فلتنا وإرادتنا . فان كانت لتدير يختص بشخص واحد بما يحقق له السعادة فهي علم الأخلاق ، وإن كانت تبحث في تدير الإنسان لأسرته وزوجه وولده وعملوكه ( خادمه ) بما يحقق سعادتهم أياً ، فذلك تدير المنزل ، وإن كانت هذه الأمور تتناول صنوف الرياضات والسياسات والمجتمعات والمدن الفاضلة فذلك هو علم السياسة ... هذه هي العلوم العملية عند ابن سينا ، وهذا تصنيفه للعلوم كلها وتصنيف الفارابى قبله . والنطق هنا يجمله ابن سينا مقدمة وآلة Organon للعلوم حسب ، وإن كان في تقسيم كتبه فصلاً يجمله القسم الأول منها ، ثم يتبعه بالطبيعيات فالإلهيات - على نحو ما بينت لكم من قبل - ونكتفى بهذا التفسير لابن سينا ؛ لأنه أرسطال من جهة ، ولأنه أدنى إلى موضوعنا في تقسيم النفس إلى نظرية وعملية ، من جهة أخرى . وإلا فإن له تقسماً آخر مختلفاً بعض الشيء ( في مقدمة منطق الشرفيين ) لا داعى لذكره .

وبهمنى -- وهم ابن سينا كذلك -- أن تميزوا بين أنواع الإدراك المختلفة التي تحصلها كل ملكة من ملكات العقل ؛ فان له هنا نظرية في المعرفة جدية بالاعتبار ، ونظراً في طبيعة الإدراك من حيث علاقته بالشيء المدرك . فاذا كان الإدراك هو أخذ صورة المدرك مجردة عن المادة أى نحو من التجريد ؛ فان الحس يدرك الأشياء مع لواصقها المادية ، كالتكثير ، والانقسام ، والسكم ( العدد ) والكيف ( الخصائص والصفات ) والأين ( المكان ) والوضع ... الخ . والحيل يجرود صورة الشيء المدرك

فصلاً . فان كان الأول فهو غير معقول ؛ لأن النقطة وهي منفردة لا تقبل شيئاً من الأشياء ، وإلا أصبحت ذات وجهات ( حجم ) ولم تمد نقطة ، ولأنها وهي طرف من خط هي نهاية فلا بد أن يكون لجزء من هذا الخط نصيب مما تقبله ؛ وحينئذ يكون للنقطة وجهان أحدهما غير الآخر ومخالف له . فالوجه القبي هو نهاية الخط غير الوجه الملاصق له من الناحية الأخرى . وإلا كانت النقطة منفصلة عن الخط ولم تكن هي نهاية ، وهنا خلف مع ما افترضه من قبل ، ومع إبطاله في مواضع أخرى للجوهر لتفرد تثبت إذن فساد القول بأن جوهر العقل شيء غير منقسم .

وبتضح كذلك فساد أن يكون شيئاً منقسماً تبعاً لانقسام الصورة العقلية التي يدركها مثلاً . إذ لو كانت الصورة العقلية منقسمة لم يأت من مجموعها شبيه بها إلا بالزيادة والسك والقدار مما سبق أن قلنا إنه خاص بالصور الخيالية — كما أن أحد أجزائها لن يدل على معنى الكل وإلا كان هو الكل ولم يكن نمحة انقسام . هذا إذا كان القسمان متشابهين ؛ أما إذا كانا غير متشابهين فإنه يتوزن على ذلك أن حد الصورة العقلية ( الذي هو الجنس والفصل كما دوسم في باب الكليات الخمس والتمريض ) يكون منقسماً . وهو عند ابن سينا محال لأنه يبين هنا — وفي قسم المنطق من قبل — أن الأجناس والفصول متناهية وغير منقسمة ، كذلك لا تنقسم الصورة العقلية إلى جنس من ناحية وفصل من ناحية أخرى ؛ كل على حدة ( بعد أن ثبت فساد انقسام كل على نفسه ) وإلا كان نصف الصورة العقلية يحتوى نصف الجنس ونصف الفصل ، وفي هذا خلف مع ما سبق إثباته ؛ أو إذن لحل الجنس والفصل كل موضع الآخر وهو محال . فالصورة العقلية هي إذن مبادئ بسيطة قابلة لتكوين مقولات أكبر ، دون أن يكون لها أجناس أو فصول ، ودون أن تنقسم في السك إلى أجزاء متشابهة أو غير متشابهة ؛ وبالتالي فهي لا تعمل في مقدار ، والتقابل لهذه المقولات المجردة فينا هو جوهر غير جسمي أو مادي .

ولابن سينا هنا حجة أخرى على تجرد الجوهر العقل من المادة . مؤداها أن تجريد الصورة العقلية عن المكان والوضع والسك والأبن وسائر المقولات فهو باءتبار وجودها المعنى ونصورها العقل لا في وجودها الوائس الخارجى ، ومثل هذه

من المادة تجريداً تاماً تقريباً ، يستوى منه وجود الأصل أو عدمه ولكنه لا يجرد عنها من الملائق ، بل تظل ملازمة لها في الخيال . أما الوهم فإنه يدرك المائى التي قد توجد في مادة ولكنها ليست في ذاتها مادية كالخبر والشر والملائم وغير الملائم ، إدراكاً جزئياً لا يبرأ من لواحق المادة والحس والخيال . وأما العقل — أو الحاكم العقل كما يسميه — فيدرك الصور مجردة عن المادة من كل وجه وعن علاقتها ولواحقها من أى نوع .

ولا يخفى عليك أن ابن سينا يمهّد للدخول في إثبات وجود النفس بوصفها جوهرًا مفارقًا للبدن ، فيقيم لكم التناقض وانحما جلياً من مادة الشيء المدرك — حتى في غيبته عن الحس — وجوهية العقل المدرك ؛ بين تعلق هذا الأول بالمادة والمكان والجهة ، وتجرد ذلك الثاني منها . يريد أن يخلص من ذلك إل أنه لا شيء مما يدرك الجزئيات المادية إلا وهو مادي ، وأن لا شيء أيضاً مما يدرك الكليات العقلية إلا وهو مجرد ، وأن يدل على أن الإدراك الحسى والخيال والوهمى — نظراً لتعلقها جميعاً بصور جزئية خيالية على نحو ما أسلف القول — فهي إنما تقع بالآلة الجسمانية التي ليست مجردة من المادة ولا مقارفة للوضع الجسمى . أما الجوهر القبي هو محل المقولات المجردة فجرد كذلك عن المادية والجسمية — فهو ليس جسماً ولا حالاً في جسم بوصفه صورة أو قوة له . وحيثه هنا تقوم على إنكار ما أثبتته في الفصل السابق للقوى الإدراكية الجزئية على القوى المدركة العقلية — أنهى الانقسام المادى في القوى الحاملة أو القابلة للإدراك ، نتيجة لانقسام المدرك ذاته . فلما كانت المدركات الحسية مقسمة ومتجزئة بدليل أنك تدرك الشيء الواحد — كالإنسان مثلاً — متفاوتاً في الكبر أو الصغر ، وأن هذا التفاوت لا بد أن يكون من جانب المدرك أو المدرك ، فقد كانت القوى الإدراكية الجزئية منقسمة كذلك . وإذن فهي في مكان ووضع وجهة ، وبالتالي فهي مادية كدر كاتها ، متصلة بها غير مفارقة .

وطريقة ابن سينا في إثبات تجرد جوهر العقل من المادة أن يبرهن على أن هذا الجسم الذى سيحل فيه المدرك العقل إن كان جسماً — فهو إما غير منقسم ( جزء لا يتجزأ كالقوة — باعتبار ما مضى — وكالجوهر الفرد أو النقطة الرياضية ) أو مقدار منقسم

الصورة العقلية الفارقة لمادتها لا يمكن لذلك أن تكون في جسم ، وإلا ولو أن هذه الصورة العقلية المجردة قد انطبقت في جسم ذي جهات وأقسام لتتج محال وخالف لما فرضناه في البدء .  
 وخلاصة القول أن محل المتولات والجوهر القابل للصورة المجردة هو مظهرها مجرد - ولا يمكن أن يكون جسماً أو في جسم محال .  
 على عكس الصور المنطبقة في المادة والتي هي أشياخ لأموور جزئية منقسمة لكل قسم منها نسبة بالقوة أو بالفعل لجزء من الشيء المادى أو لكاه .

وإذ برهن ابن سينا بهذين الدليلين على تجرد الجوهر العقلي من المادة والجسمية انتقل إلى النتيجة المنطقية التي تلزم هذا البرهان بالضرورة ، وهي أن تعقل القوى العقلية المذكورة ليس يحدث بالآلة الجسمية . وله في ذلك حجج ثلاث : أولاها أنه لو كان تعقل هذه الصور بآلة جسدية لم تستطع أن تعقل ذاتها وتشعر أنها تعقل ( كالحس مثلاً أو الخيال والروح التي تحس أو تتخيل وتتوهم أشياء خارجة عنها - دون أن تشعر بفاعليتها هذه ) - أما العقل - فانه يعقل الصور الكلية . ويعقل أنه يعقلها - مما يدل على أنه ليس بينه وبين ذاته آلة أخرى وسيطة وبالتالي أنه يعقل بذاته - وحجة أخرى هي أن الحواس وما من شأنه إدراك الصورة الحسية الجزئية يوهنها دوام العمل ، وبصبيها بالمجز والكلال ( وأصلك هنا كثيرة وواضحة ) بينما القوة العقلية لا يزيداها التعقل إلا جلاء وجدة ، وصفاء وقوة ودرية ؛ ما لم يُفسد عليها الخيال والحس هذه الملكة . والحجة الثالثة على أن القوة العقلية ليست جسمية أنها ليست خاضعة للضمف أو الشيخوخة شأن سائر القوى البدنية في سن معينة . بل لا تزال قوية ندية بعد هذه السن بكثير ما لم يطرأ عليها طارىء مرضى أو نحوه . فان سح أن النفس بتعقل فعلها عند مرض البدن كما يتوهم - أو عند الشيخوخة ، فاذلك إلا لأن النفس - كما بينا من قبل - لها فعل بالقياس إلى البدن ( إدارته وسياسته ) وفعل بالقياس لذاتها ( التنقل والتفكير ) فبأيهما اشتغلت انصرفت عن الآخر لا تجمع بين الاثنين مطلقاً ، بل نسبياً ؛ كما لا يتم فعلها إلا بالبدن فهو حالة على النفس ، وشر لا يد منه .

وآية احتياج هذه القوة العقلية إلى معونة القوى الحسية الحيوانية أنه لا يتم لها معرفة ولا تعقل إلا إذا أمدها هذه

البدنية بمادة المرفة المنقل ( الخلام Matière Brute ) ، فمعدنذ تبدأ النفس عملها على أعما أربعة :

(١) التجريد والتنميم وانتزاع الكلى من الجزئيات ، واستخلاص التصور الذهني Concept .

(٢) ومن هذه التصورات الذهنية المجردة تقوم أحكام وقضايا سالية وموجبة هي التي نسميها في النطق التصديقات Judge-Ments - التصورات تقوم في الحس المشترك والتصديقات في الخيال والوهم .

(٣) ثم إن التدمات الكلية التي تستقيم عليها الأنيسة والبرامين العقلية لا بد أن تكون من واقع الحياة والتجربة ، وأن يكون سبيلها الملاحظة والمشاهدة والتنميم الذي يؤدي إليه الاستقراء induction والحواس هي وسيلة الاستقراء الأولى .

(٤) وكذلك التجربة والسلمات والبدهييات التي نحصلها وتصديقها لشيوعها وتواترها وجلاء الحق فيها ؛ أى نحصلها بالسماح كما يقول العرب، أو Par oui-dit كما يقول الفرنسيون ؛ هذه إنما تكتسبها بالسمع أو التلميح والتلقين أو التقليد tradition وقد لا تصدق بها بعد .

وبهنا يكون ابن سينا قد أقام الدليل واضحاً قوياً على أن النفس الناطقة ليست في ذاتها جسماً ، وأنها لا تحمل في جسم ، لأن صورها المعقولة التي هي عملها ليست جسمية . وثبت إذن أن النفس الإنسانية جوهر روحاني مفارق Séparée .

كامل وسوقى

## رفائيل

للوستاز أحمد محمد الزيات

إحدى روائع القصص العاللى الواقعى لشاعر فرنسا

الخالد « لاسرتين » .

قص فيها بأسلوبه الصرى تاريخ فترة من شبابها تدفق فيها حسه بالخيال وقام بها شعوره بالحب ... وهي « كآلام قرتر » في دلة الترجمة وقوة الأسلوب . طبعت أربع مرات وثمها . ١٠٠٠ رشا بعد أجرة البريد